تورغنيف بين هاملت ودون كيشوت

بقلم الدكتور محمد يونس

ملخص المقـــال

يتناول المقال ثلاث نقاط :

الاولى ـ رأى الاديب الروسي تورغينيف في شخصيتي هاملت ودون كيشوت مقارنة بين شكسبير وسرفانتس ٠

الثانية ـ مدى انعكاس هاتين الشخصيتين على نتاجات تورغينيف الادبية بشكل عام ، مع شروح لاوجه الشبه والتقارب بين دون كيشوت ورودين في رواية تورغينيف رودين ٠

الثالثة ـ ملاحظات وآراء تورغينيف ومعاصريـــه عن روايتي «هاملـــت» لشكسبير و «دون كيشوت» لسرفانتس ٠

امتاز الادب الروسي في القرن التاسع عشر بتفاعله القوى مـــع الادب العالمي ، فكان يؤثر ويتاثر بآداب مختلف شعوب العالم ٠ وكان الادباء الروس في ذلك القرن اشبه بالمرايا العاكسة لكل اشعاعات الفكر والادب من روسيا واليها ٠

ويتجلى في هذا المجال اديب روسيا العملاق ـ ايفان سير غييفتش تورغينيف ، حيث كان له الفضل الكبير في تعريف اوربا على الادب الروسي وكانت له اليد الطولى في المساعدة على نشر نتاجات الكثير من الادباء الغربيين ، والفرنسيين خاصة ، باللغة الروسية ٠ ولم يقتصر دور تورغينيف على مجرد التعريف بروائع الادب العالمي والعمل على نشرها من اللغة الروسية واليها ، بل تعداه الى دراسات علمية ـ فنية يستقي منها مايروى ظماة اللامتنا هي الى الادب الانساني الخالد ٠

كان لعلاقة تورغينيف الوطيدة بعائلة بولينا فياردو[1] اثرهـــا الكبير في

زيادة اهتمام الكاتب بالادب الاسباني ، وهذا ما حدا به الى دراسة اللغة الاسبانية باندفاع كبير ليطلع على هذا الادب من منبعه الاساس • وعائلة فياردو ليس مجرد اسبانية الاصل ، بل ومطلعة على اسرار ادبها القومي بشكل متكامل ، خصوصا والزوج لويس فياردو اديب وباحث فنى ضليع في الادب الاسبانى حيث قام بنول ترجمة كاملة لرواية سرفانتس «دون كيشوت» من الاسبانية الى الفرنسية •

اهتم النقد الروسي التقدمي بالادب والفكر الانساني اهتماما كبيرا ، لذا نجد أن هذا النقد يثمن ابداعات شكسبير وسرفانتس عالياً • وهذا ماحفز تورغنيف نحو المقارنة بين هاملت ودون كيشوت في مقالته الشهيرة «هاملت ودون كيشوت» والتي تعتبر من الدراسات الجادة عن هذين الاثرين الخالدين •

لقد راودت تورغنيف فكرة هذه المقالة اثناء عمله في كتابة رواية «في العشية» وانتهي منها في كانون الثاني ١٨٦٠ وقام بالقائها كمحاضرة في امسية خصصت لمصلحة المعوزين من الادباء ثم نشرت على صفحات العدد الاول من مجلة «المعاصر» من نفس السنة • وكان لهذه المقالة صدى كبير في الاوساط الادبية آنذاك •

قبل ان يلج تورغنيف لب مقالة نجده يؤكد رأية التالى : «يعيش الناس كلهم – عن وعي او بدونه – من اجل مبادئهم ، مُثلهم ، اى من اجل ما يعتقدونه الحق والجمال والخير [٢] •من هذا المنطلق يبدأ تورغنيف المقارنة بين هاتين الشخصيتين الادبيتين الرائعتين •

هاملت ، كما يراه تورغنيف ، هو « مثال للانانية وعدم الايمان قبل كل شيء • انه اناني يعيش لنفسه ، لكن هذا الاناني لا يثق حتى بنفسه • انه يؤمن بما ليس فينا وما فوقنا فقط ، لكن هذه الـ « انا » التي لا يؤمن بها هاملت عزيزة عليه • انها النقطة التي يتردد اليها هاملت دون ملل وذلك لانه لا يجد في العالم الشى الذى يلتصق به روحيا • انه دائم الريبة لذلك فهو يحمل معاناته ابداً [٣]

اما دون كيشوت ، فان تورغنيف يرى فيه « الايمان» بكل معانيه •••انه

عظيم الاخلاص للفكرة التي يعتنقها ، لذلك فهو مستعد لكل اشكال الحرمان والتضحية بحياته من اجلها»[٤] ان دون كيشوت ينظر الى الحياة بمقدار ما تقدم من خدمات لتحقيق الهدف المنشود وهو انتصار الحق والعدل على الارض ، فهو « لا يعيش لنفسه بل للاخرين من اخوانه ، للقضاء على الشر ، لمجابهة القوى المعادية للانسان »[٥] . ويعتقد تورغينيف ان سر شجاعة دون كيشوت واقدامه هو ايمانه المطلق بعدالة قضيته وعدم تردده في النضال من اجلها .

هاملت قانع بما فيه ، فهو يعترف بضعفه ، وهذا مصدر سخريته التي تمثل نقيض حماسة دون كيشوت . ان هاملت يتفحص اعماق ذاته باستمرار لذلك فهو يرى جميع نقائصه ويدينها . انه يحتقر نفسه وفي نفس الوقت يعيش على ذلك الاحساس بالاحتقار . انه لا يثق بنفسه ولا يعرف لحياته هدفا ، ومع ذلك فهو متعلق بالحياة . ان هاملت لا يضحي بحياته الفارغة ، لكنه يحلم بالانتحار حتى قبل ظهور شبح ابيه وقبل تكليفه بتلك المهمة القاسية .

ان معاناة هاملت اشد قسوة من معاناة دون كيشوت ، فالاخير يعاني من ضرب الرعاة الذين انقذهم من ايدى المجرمين ، في حين ان هاملت يعاني من جرحه لنفسه بنفسه .

يؤكد تورغينيف الانسجام التام بين تصرفات دون كيشوت وبين مبادئه وافكاره ، على العكس من هاملت الذى لم يكن صادقا في التعبير عما يحسه ويؤمن به ، فيقول : « ان دون كيشوت يحترم جميع التقاليد السائدة والدين والملوك والامراء ، وهو في ذات الوقت حر ويعترف بحرية الآخرين . اما هاملت فيهاجم الملوك وحاشيتهم ـ لكنه في حقيقته ظالم وقاس مثلهم»[٦] .

يتهاوى هاملت روحيا عند اقل فشل ، على العكس من دون كيشوت الذى لا يتزعزع ايمانه بقضيته رغم كل المشاكل التي تصادفه . ان هاملت جذاب المنظر بملابسه الحريرية والريشة التي تزين قبعته ، بكلامه الشاعرى المنمق وتعاليه على الاخرين . اما دون كيشوت فهزيل الجسم ، مضحك الشكل ، لكنه بسيط التصرف والكلام .

لقد قلب تورغينيف في بحثه آنف الذكر المفاهيم التي كانت سائدة عن هاتين

الشخصيتين لدى الاوساط الادبية الروسية في القرن التاسع عشر : فهاملت ليس بالشخصية الخلابة التي تحمل معاني القوة وتحيطها هالة التعظيم ، بل هو انانى متخاذل • ودون كيشوت ليس بالفارس المهزوز والانسان المضحك الذى يحارب الطواحين الهوائية ، بل هو الانسان المدافع عن الحق والمضحي بحياته من اجل المبادىء الانسانية السائدة •

ان حب تورغينيف لشكسبير وسرفانتس عظيم جدا ، لكنه عندما يفاضل بين هذين العملاقين فانه يقدم خالق هاملت على مبدع دون كيشوت بشيء من التهويل غير العادل فيقول : «شكسبير ـ عملاق ، نصف الهة ••• نعم ، لكن سرفانتس ليس قزما امام العملاق الذى ابدع «الملك لير» • انه انسان وانسان كامل وللانسان كل الحق في الوقوف على قدميه حتى امام انصاف الالهة • ان شكسبير يبتلع سرفانتس ـ ليس وحده ـ بقوة اسلوبه وخصب خياله ولمعان شاعريته وعمق فكره ، لكنك لن تجد في رواية سرفانتس التوتر المتكلف ولا المقارنات غير المنطقية او النهايات المفرطة الحلاوة»[٧] •

تمتاز مقالة تورغينيف «هاملت ودون كيشوت » بقوة التحليل للشخصية الانسانية تحت اضواء هذين النموذجين اللامعين • فقد قدم تورغينيف ، في هذه المقالة ، هاملت مفكرا نظريا يلجأ باستمرار الى البحث والتحليل لكنه يفتقر الى وضوح الرؤيا وينعدم فيه الاصرار وتتلاشى عنده التضحية من اجل الفكرة • اما دون كيشوت ، فعلى النقيض من صاحبه ، الشخصية المتحمسة التي تحمل بذرة الثورة حيث تتجلى فيه التضحية والاخلاص والاقدام من اجل الفكره التي آمن بها •

كانت فكرة مقالة «هاملت ودون كيشوت» قد وردت على ذهن تورغينيف سنة ١٨٤٨ عندما كان في باريس ، حيث شهد الاحداث المأسوية للثورة الفرنسية في تلك السنة • وقام بتنفيذ تلك الفكرة في ظل الظروف الثورية المتنامية فيروسيا سنة ١٨٦٠ ، كما اسلفنا اى قبل اصدار قانون الغاء حق العبودية في روسيا بعام واحد • وقد اثارت هذه المقالة جدلا واسعا في الاوساط السياسية والاجتماعية في روسيا ، الى جانب الاوساط الادبية • فقد احتج غيرتسن[٨] معتبرا دون كيشوت

تجسيدا طوباويا لمبادىء النضال القديمة من اجل العدالة • كذلك ندد غيرتسن في كتابه «من الشاطيء الآخر» بالصفات الدون كيشوتية لثوار سنة ١٨٤٨ في فرنسا، ونادى بالاهمية الخاصة للشك والتحليل في لحظات التحول التاريخي وضرورة استخلاص النتائج • لذلك يؤكد غيرتسن الاهمية الاجتماعية لملامح الشخصية الهاملتية •

ولم يعدم تورغينيف التأييد في اوساط المفكرين والادباء ، فقد وقف الى جانبه الكاتب الروسي المعروف ليسكوف[٩] الذى جاهر باعجابه الشديد بشخصية دون كيشوت المضحية من اجل اقرار الحق والعدل • كذلك نجد ان دستويفسكي يرى في شخصية دون كيشوت «الانسان الايجابي الرائع» ويثمن رواية سرفانتس على انها «اكثر الكتب حزنا والتي لا ينسى الانسان ان يصطحبها معه وهو في طريقه الى المحكمة الالهية الاخيرة»[١٠] • ومن الجدير بالذكر ان اعجاب دوستويفسكي بشخصية دون كيشوت يتجسد عمليا في شخصية الامير ميشكين بطل رواية «الابله» حيث الكثير من الصفات المشتركة والوشائج القوية بين هاتين الشخصيتين •

لقد انعكس التاثير الفكرى لشخصيتي هاملت ودون كيشوت في ادب تورغينيف بوضوح فنجد شخصية هاملت في قصته «هاملت مقاطعة شكروفسكى» انه الانسان الاناني الذى يضفي على نفسه اكثر مما فيها ، لكنه الى جانب ذلك فائق القدرة على التفكير وانتقاد نفسه والوسط المحيط به • كذلك نلتقي بهاملت الروسي في قصة تورغينيف «آسيا» فنجد السيد ـنـ الاناني والمتنعم المنزوى الذى يحلل مع نفسه المواقف والظروف بشكل كامل ، لكنه لا يبالي الا بشخصه وبذاته •

ولو امعنا النظر في انتاجات تورغينيف جيدا لوجدنا ان اعجابه الفكرى الشديد بشخصية دون كيشوت جعلها اقرب الشخصيات الى روحه ، وقد تأثرت بها العديد من شخصيات تورغينيف الادبية • واقربهم الى دون كيشوت هو رودين بطل الرواية المسماة باسمه • رودين انسان ذو عقل كبير وقابليات فذة • انه صادق الحماس لخدمة مجتمعه وشعبه ، لكنه يعاني الفشل في كل محاولاته المخلصة • ان كل محاولات رودين الاجتماعية تجرى بجو من الصمت والتواضع

ويصور تورغنيف بطله على شاكلة دون كيشوت ـ ببنطلونه الفضفاض وشعره الاشيب الاشعث الذى يبرز من تحت قبعته القش الممزقة التي يعتمرها • ليس هذا فقط ، بل ويجعل رودين يستشهد باقوال دون كيشوت فنسمعه وهو يقول : « هل تتذكرون ما قاله دون كيشوت لصاحبه وهما يغادران قصر الدوق ؟ لقد قال ـ ياصديقي سانتشو ! الحرية اثمن الفضائل في الانسان • وسعيد ذلك الذى تمنحه السماء قطعة خبز ولا يكون مدينا للاخرين ـ • والشيء الذى احس به دون كيشوت آنذاك احسه انا الآن[١١] •

ان القارىء يلمس تفوق رودين على جميع المحيطين به في قصر السيدة الاقطاعية ، لكن رودين يشعر في قرارة نفسه بذات الشعور من الذل الذى كان يعانيه دون كيشوت في قصر الدوق • ويحس الاثنان بالراحة النفسية بعد تخلصهما من الارتباط المفروض وعودتهما الى حياة التنقل والاسفار • وبعد مغادره رودين لقصر السيدة الاقطاعية نرى ان مصيره التراجيدى يشبه الى حد كبير مصير دون كيشوت •

ان رودين ، كصاحبه دون كيشوت ، مليء بالافكار الخيرة والحكمة والطيبة والتحمس للعمل الجاد • لكن الشخصيتين تفتقران تماما الى الاحساس بالواقع والتفاعل معه ، فالاثنان يعيشان عالم الاحلام والخيال • فهما يريان جيدا كل مساوىء الواقع المحيط بهما ويعرفان بوضوح ضرورة اصلاح ذلك الواقع ،لكنهما ساذجين في نضالهما من اجل ذلك الى درجة البؤس • فكل منهما يناضل وحيدا، وهذا سر فشلهما المستمر ومكمن المصير التراجيدى لكل تطلعاتهما ونشاطاتهما • ورغم ان رودين لم يفقد عقله ، كما حدث لدون كيشوت ، لكنه يدان بالبلاهة والخطر فيجبر على الاقامة في القرية كما ابعد دون كيشوت الى قريته •

لا يشذ رودين عن دون كيشوت الا في نهاية الرواية ، وكأنه قد فهم خطأ موقفه الفكرى السابق وعدم جدواه ، فنلتقي به فوق متاريس باريس مشاركا في ثورتها حيث يستشهد في سبيلها كالكثير من الجنود المجهولين •

تتصف شخصية رودين بصفات قومية متميزة وخصائص ذاتية محددة وابعاد تاريخية واضحة ، لكنها مع ذلك كله تجسد التراجيديا الانسانية العامة

للفرد الذى يخوض النضال ضد قسوة المجتمع ، انه التراجيديا الانسانية العامة للذات الطيبة التي تفتقر الى الاحساس بالواقع وتعيش الاحلام فقط والتي ستعاني الفشل لا محالة بمجرد اصطدام تلك الاحلام بالواقع .

ان دون كيشوت ـ طبيعة متكاملة من الطيبة المتناهية ، لذلك فان رودين رغم توفر بعض ملامح دون كيشوت فيه لكنه اقل طيبة وشجاعة . وهو ضائع ـ هذه الصفة لا نجدها عند دون كيشوت ـ لذلك يتراجع عن حبه واحلامه امام ناتاليا لاسونسكايا بمجرد ان هذه الاحلام قد وضعت على المحك العملي . ففي اللحظة الحاسمة التى يجب عليه فيها ان يقرر مصيره ومصيرها نجده مستلسما لليأس ، او كما تعبر عن ذلك ناتاليا لاسونسكايا نفسها بانه قد «جبن» ويحاول التظـــاهر بالاهتمام بمصلحتها ومستقبلها كي يتلافى فشله وبؤسه .

تتميز نتاجات تورغينيف الادبية ، بشكل عام ، بعنصر السخرية المبطنـة . فكثيرا ما نرى في اشد لوحاته حماسا وانفعالا ان ملامح السخرية الخفية متوفرة فيها ، واحيانا لوحات ساخرة كاملة . واسلوب تورغينيف هـــذا متأثر باسلوب سرفانتس حيث تتعاقب اللوحات المضحكة عنده مع اللوحات الدرامية العميقـــة . ويجب ان نشير الى ان سخرية سرفانتس من بطله دون كيشوت ليست بمعناهـــا الكامل ، بل هى غالبا ما تكون اقرب الى مجرد فكاهة طيبة . اما عند تورغينيف فنراها احيانا تتخذ شكل السخرية المرة من رودين .

ان ادب سرفانتس هو ادب عصر النهضة الذى يميل الى خلق الشخصيـات الجبارة والمغالية احيانا ، رغم ان شخصية دون كيشوت تمثـــل فلسفة سرفانتس بكاملها . اما ادب تورغينيف فهو يميل الى خلق الشخصيات الاجتماعية الحيـة ، لذلك فان شخصية رودين بكل ما فيها من الملامح الانسانية العامة هي اقل شمولية واضيق اطارا من شخصية دون كيشوت .

دون كيشوت لا يخيفه السجن ولا يرعبه الموت من اجل تحقيق مبـــادئه السامية . هذا الجانب الذى كان يفتقر اليه رودين حتى الفصل الاخير مـــن الرواية نجده متجسما بشكل كامل في بطل رواية تورغينيف الثالثة «في العشية» ـ ايساروف . لقد اضفى تورغينيف على بطله انيساروف كل ما في دون كيشوت

من شجاعة واصرار وتضحية ، لكنه يتميز عن دون كيشوت بوضوح الهـــدف ودقة التفكير .

كذلك نجد دون كيشوت في شخصية ميخاليفيتش في روايـــة تورغينيف الثانية « العش الاقطاعي » ـ الانسان المتحمس المؤمن بمبادئه ايمانا قويا والـــذى لا يألوا جهدا من اجل تحقيقها ، لكنه غير قادر على تخطي الظروف وتجاوزها .

لقد فهم تورغينيف شخصية دون كيشوت فهمـــا دقيقـــا ، فهو يرى ان سرفانتس حينما يضع بطله تحت وابل من الضرب المبرح ، انما يفعل ذلك ليس بدافع الضحك او لمجرد السخرية . فالقارىء يتحسس عمق المأساة التي يبرزها سرفانتس من خلال المواقف المضحكة التي يتعرض لها بطله دفاعـــا عن الحق . ولنتذكر مثلا لوحة التجار الذين ساعدهم دون كيشوت ثم كيف جازوه بالضرب القاسي .

ويعتقد تورغينيف ان شخصية دون كيشوت تمثل التقدم ، لذلك كان يطلق هذه التسمية على الناس التقدميين في عصره من المناضلين الذين كانوا يقـــاومون السلطة القيصرية بصلابة واصرار معرضين انفسهم لشتى انواع الاضطهاد . وكان تورغينيف شاهد عيان لثورة سنة ١٨٤٨ في فرنسا ، ورغم انه لم يكن الى جـانب الثورة لكنه كانسان شريف لم يستطع الا ان يعبر عن اعجـــابه الـــكبير بالـ «دون كيشوتيين» من الثوار . فيصف كيف جازف ثائر عجوز بحياته معرضـــا نفسه لخطر الموت في كل خطوة يخطوها فقط من اجل ان يمنع القلق والحزن عن قلب الكاتب الالماني التقدمي غيرفيغ ويخبره بان ولده في حرز امـــين ولم يصبه مـكروه .

وعلينا ان نفهم ان حب تورغينيف وتعلقه بشخصية دون كيشوت ، وانعكاس ملامح هذه الشخصية في العديد من ابطال تورغينيف على انها ليست علاقـــة استنساخ او ربط مباشر ، وانما هو مقدار العطاء الذى قدمـــه سرفانتس للادب العالمي ، حيث اشار بيلنسكي ان «فكرة دون كيشوت لا ترتبط بعصر سرفانتس وحسب بل هي فكرة انسانية خالدة»(١٢) .

الهوامش

(١) بولينا فيارده (١٨٢١ ـ ١٩١٠) مغنية اسبانية الاصل فرنسية الجنسية · من أشهر المغنيات في اوربا في القرن التاسع عشر · ارتبط بها تورغينيف بعلاقة حب كان لها اثرها الكبير في حياته ونتاجاته الادبية ·

(٢) اى · اس · تورغينيف ـ مجموعة المؤلفات ـ المجلد الحادى عشر ، موسكو ١٩٥٦ ، ص ١٦٩ ·

(٣) نفس المصدر ، ص ١٧٢ ·

(٤) نفس المصدر ، ص ١٧٠ ·

(٥) نفس المصدر ، ص ١٧٢ ·

(٦) نفس المصدر ، ص ١٨٣ ·

(٧) نفس المصدر ، ص ١٨١ ·

(٨) الكساندر ايفانوفيتش غيرتسن (١٨١٢ـ١٨٧٠) الاديب والفيلسوف والثائر والصحفي الذى ناضل ضد الحكم القيصرى ببسالة ومات في باريس بعيدا عن وطنه ·

(٩) نيكولاى سيميوانوفيتشس ليسكوت (١٨٣١ ـ ١٨٩٥) احد الكتاب الروس المعروفين في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ·

(١٠) اف · ام · دوستويفسكي ـ مجموعة المؤلفات الكاملة ـ المجلد الثاني عشر ، ص ٢٥٥ ·

(١١) اى · اس · تورلينيف ـ مجموعة المؤلفات ـ المجلد الثاني ، موسكو ١٩٥٤ ص ١٠٥ ·

(١٢) ف · غ · بيلينسكي ـ مجموعة المؤلفات الكاملة ـ المجلد السادس ، موسكو ١٩٥٥ ، ص ٣٣ ·

المصـــادر

(١) تاريخ الادب الروسي (بجزئين) تحت اشراف البروفسور اس · ام · بتروف ، موسكو ١٩٦٣ ·

(٢) ان · بوغوسلوفسكي ـ اى · اس · تورغينيف ـ (سلسلة حياة العظما) موسكو ١٩٦٤ ·

(٣) مجموعة مؤلفات تورغينيف باثني عشر مجلدا ، « دار نشر الادب الفني » ، موسكو ٥٤ ـ ١٩٥٦ ·